سر اعجاز القرآن فى الاسلوب والمعنى

هذا الموضوع خليق ألا يكون مثار جدل ومناقشة، وقد ثبتت قواعده وبسقت فروعه، وتبين وجه الحق فيه، ولكن نفرا أبوا: إلا أن يطلعوا علينا برأى قيل به قدما ولم يلبث أن سخف وقبر فى مهده.

قالوا: ليس الأسلوب سر البلاغة، ومن ثم فأسلوب القرآن غير معجز، فاضطرنا هذا القول لأن نمسك القلم لمحو أساطيرهم كما انمحت من قبل.

أنت ترى أن دعواهم قائمة على أن « ليس الأسلوب سر البلاغة » نعم. وينبغى ألا يكون الأسلوب وحده سر البلاغة، لكن ماهو سر البلاغة إذاً؟ أفى المعنى والروح فقط كما يزعمون؟ كلا، لن نقرهم على ذلك، فما كان لمتأدب تصديق هذه الدعوى، وهو يعلم أن مثل الفكرة والأسلوب والبلاغة كمثل فكرة هندسية شيد عليها بيت محكم ظهر جماله بعد تمامه، فليدلونى - رعاهم الله - أمجرد رسم البيت رسما هندسيا يكفل جماله ولو كان البناء معوجا، ولبناته واحدة بارزة والأخرى غائرة؟ أم الجمال والرونق والبهر وقف على مجموع إحكام البناء وإتقان الطلاء مع الرسم الهندسى البديع؟ كيف لا!! وخفة روح المرأة وحدها لا تكون عنوانا لجمالها ولا مقياساً لفتنتها... إذ لابد من رشاقة القوام، واعتدال القد، ونجل العينين، ونصاعة الوجنتين، مع خفة الروح حتى نحكم بأنها جميلة تبعث فى النفس معنى الجمال ومعنى السحر.

هب أيها القارىء أنك اخترت بيتا من الشعر بليغا، وطلبت إلى تلامذتك نثره فيما لا يزيد عن سطرين، وأخذت فى مراجعة ما كتبوا، أكنت ترى المعنى بليغا فى كل كتاباتهم، أم كنت تراه قويا فى واحدة فاترا فى ثانية باردا فى ثالثة، تبعا لجودة العبارة ومتانتها؟ ...

أيها المعارضون الكرام! أسلمتم بأن سر البلاغة لا يرجع إلى المعنى وحده، ولا إلى الأسلوب وحده، أم لازلتم مصرين؟ إن كنتم مصرين لم يبق إلا مجابهتكم بالدليل العملى، وها كم هو قوله تعالى « قال رب إنى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيبا ولم أكن بدعائك رب شقيا » وقوله تعالى « فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون » فان كنتم صادقين فى دعواكم من أن أسلوب القرآن غير معجز فصوغوا معناها فى أسلوب من عندكم حافظ لهذا الرونق وتلك الروعة وخال من الطعن والتجريح، وهأنتم أولاء تفقهون فكرتها وتتشربون بروحها، ما أراكم بمستطيعين ولو كان بعضكم لبعض ظهيرا.

كأنى بكم تسألون: هاتوا أنتم برهانا عمليا يثبت إعجاز أسلوب القرآن. نعم وإذ قد

طلبتم فانظروه بعد .

لفظ القرآن من جنس كلام العرب، ولكن طريقة اختيار ألفاظه وتركيبها للدلالة على المعانى المتباينة لم تصل الفطرة العربية إلى مجاراتها أو الدنو منها ، ومن هنا خالف أسلوبه جميع الأساليب ، والأسلوب على هذا هو الصورة اللفظية التى تعبر عن معنى ما .

لو أنصف المعارضون لآمنوا معنا بأن الأسلوب درجات : منها العليا ،والسفلى ، وما بينهما، وأن المعنى من حيث هو معنى واحد، إلا أن روحه وقوته تسير جنبا لجنب مع مراتب الأسلوب كما مثلت لذلك ببيت الشعر المنثور . فأعلى مراتب الأسلوب مع أعلى مراتب روح المعنى ينجم عنهما أرقى درجات البلاغة وهى درجة الاعجاز . وإلام يرجع السر فى إعجاز أسلوب القرآن ؟ أإلى اختيار ألفاظه أم إلى ترتيب مواضعها وحسن تأليفها أم إلى الاثنين ؟ هذا ما سنوضحه :

المعروف أن للألفاظ مدلولات، وأن الكاتب عند إرادة التعبير عن فكرة ما، يستحضر فى ذهنه المدلول ثم لفظته، فالمدلول ثم لفظته، حتى ينتهى من رصف العبارة التى توضح فكرته . وفى هذه العملية احتمالان أو قوتان : فأما الأولى فقوة إيثار بعض الألفاظ الحاملة لهذه المدلولات على بعض ، وأما الثانية فقوة ترتيب هذه المدلولات ترتيبا يكفل إبراز الفكرة متماسكة الأجزاء . وهاتان القوتان ليستا سواء عند جميع البشر ، فلا غرو إن كان أسلوبهم متفاوتا قوة وضعفا ، وأعلاهم درجة أعلمهم بسر كل لفظة، وبمقدار اتصال مدلولها بمدلول ماقبلها وما بعدها حتى تبرز الفكرة فى أجمل أسلوب وأنصع حلة ، وتلكم قضية عقلية برهانها المحسوس قوله تعالى: «وقيل يا أرض ابلعى ماءك ويا سماء أقلعى وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودى وقيل بعدا للقوم الظالمين»، فليتأمل المعارضون الكرام هذه الآية ليدركوا لماذا أوثرت هذه الألفاظ على غيرها ؟ ولماذا رتبت هذا الترتيب المحكم الذى يخرج عن طوق البشر ؟ فإن طالبنا بكشف القناع عما قد يدق من اللطائف التى جاءت من اختيار هذه الألفاظ والتى رفعت المعنى إلى درجة الاعجاز فليرهفوا آذانهم .

إيثار « قيل » على « قال الله » لأن المقام مقام ذكر الأرض والسموات والماء والسفين على جهة الذل والتسخير فاعظاما لاسمه عن الذكر مع هذه المكونات آثر قيل .

إيثار « يا » من بين حروف النداء ! لعظم البعد المعنوى بين الله تعالى والأرض فهو غير مفتقر وهى مفتقرة ، وهو فى كمال العزة، وهى فى غاية الذل، فلاجرم أن ناداها بيا .

إيثار « أرض » على غيرها لأن المدحوة والمبسوطة وغيرهما صفات زائدة للفظ الأرض ، وايضا لأن لفظ الأرض أخف وأكثر استعمالا، ثم لو قال أرضى لعظمها باضافتها إليه فى حين انها ذكرت على سبيل الاحتقار، لأن المضاف بذا يكتسب من المضاف إليه شرفاً أو احتقاراً .

إيثار « ابلعى » على « ابتلعى » لأن الأولى أخف نطقا ، ثم لأن فى الابتلاع نوع مشقة وفى البلع سهولة،وسهولة بلع الأرض للماء فيها دلالة على باهر قدرته ، وإنما ذكر مفعول ابلعى وهو ماءك، لأنه لو لم يذكر لدخل فى البلع ماليس فيه، وهو الأشجار والبحار والسفينة .

إيثار « أقلعى » على « احبسى ماءك »لأن الاقلاع ترك من جهة الفاعل بعد الاستمرار عليه ولما كان إنزال المطر صادرا من السماء على سبيل الاستمرار ثم رفع، ناسب أن يقال أقلعى. ولم يقل « ياسماء أقلعى عن صب الماء » بذكر المتعلق وهو الجار والمجرور كما قال ابلعى ماءك لأن بلع الأرض للماء وكل بلع آخر فيه نوع اعتمال،فلأجل هذا ذكر متعلقه . وتوجيه أمر الأرض بالفعل المتعدى وأمر السماء باللازم،لأن الأرض تتصرف فى الماء بصيرورته فى بطنها بخلاف السماء فالمراد منها مجرد الكف عن الصب .

آثر « بعداً » ولم يقل « ليبعدوا » لأن فى المصدر نوع تأكيد لايؤدى بالفعل ، ولأن المصدر غير مقيد بزمان، فالتعبير بالمصدر أبلغ .

هذه هى بعض المقاصد المعنوية الدقيقة التى اختير لها انسب واحكم الألفاظ فى الدلالة على المراد . فهل لبشر كائنا ماكان ان يعصم من الزلل فى مثل هذا الاختيار ؟.

ثم هناك بدائع اخرى ترجع إلى ترتيب الألفاظ واخذ بعضها بحجز بعض منها :

قوله « ياارض ابلعى ماءك » ولم يقل « ابلعى ياارض ماءك » لأمرين : أما اولهما ، فجريا على ما ألف من الايقاظ والتنبيه لأن كل من طلب امرا من غيره لزمه إيقاظه حتى يتنبه لما يراد منه ، وأما ثانيهما فلأن كل من ناديته فى البدء نزعت نفسه إليك وتطلع إلى ماسيلقى عليه من امر او نهى .... وايضاً قدم نداء الارض على نداء السماء لأن البداية بالغرق كانت من جهة الأرض،ولأن الغرض إهلاكهم فى الأرض التى حصل فيها العصيان ، ولأنها مقر للسفينة التى تكون بها النجاة ..... ثم انظر الى الطباق المعنوى فى قوله « ابلعى وأقلعى » لأن البلع إدخال الماء فى جوف الأرض وإقلاع السماء إخراجه عنها والادخال والاخراج ضدان كما فى قوله تعالى « أشداء على الكفار رحماء بينهم » فالرحمة لين القلوب والشدة ضدها .

ومن التعسف محاولة إظهار كل أسرار الأسلوب فى آية من الآيات فقد يكون جماله بحيث يدرك ويوصف او يدرك ولا يوصف . فلا يأتين احد بعد طالبا سر الأسلوب فى آية كذا،فليس ذلك دليلا على عدم إعجازها، ويكفى ان يقرأها على عدد من جلسائه فتمر على اسماع احدهم ولم تتغير بلادته ، ويسمعها الثانى فيفقه لها اثرا خفيفا ، والثالث فتحركه، والرابع فتهزه هزا ، وما ذلك إلا لتفاوت استعدادهم ، واختلاف تفكيرهم ، ومقدار بصرهم بالأساليب العربية ، واستجلائهم لكنهها ؟

عبد الحميد العمروسى